

## الملاحم الشعرية

لعل البعض يعتبر أن الحديث عن الملاحم العربية في مثل هذا البحث الذي نتناول فيه الرواية فضولا واستطرادا . . ولكن الحقيقة أن الحديث عن هذا الشعر الذي يسرد أحداثا قصصية ويكاد يقترب بشيء من المعالجة والجمع والتوفيق من الشكل الملحمي ، حديث مهم في بحث الرواية العربية بصفة خاصة . . فإنظاهرة الأساسية التي تلفت نظر الدارس في هذه الروايات أن الشعر يرد على لسان جميع الأبطال بلا استثناء ، سواء كان هؤلاء الأبطال ممن يقولون الشعر، أو ممن يمكن أن يقولوا الشعر، ثم كانوا أبعد ما يكونوا عن هذا بحكم رسم شخصيتهم وتحديد بيئتهم وزمان وجودهم . . فقد يكون مقبولا مثلا أن يرد على لسان بطل جاهلي قريب من الإسلام شعر عربي ، ولكن ماذا نقول فيما روى على لسان آدم أو نوح . من شعر مثلا ! فوهب بن منبه في كتابه التيجان يروي شعرا عنى لسان آدم . قاله في رثاء ابنه هابيل حين قتله أخوه قابيل يقول فيه .

أيها هابيل يا ثمر الفؤاد " أبعد العين مسكنك الضريح

ويدخل وهب في جدال حول هذا الشعر وكأنها يحاول أن يثبت صحة نسبته الى آدم فيقول : « قال جبير بن مطعم هذه

التصيدة ليست لآدم ، هي منحولة . . وقال ابن عباس : تكلم آدم بجميع الألسن التي نطق بها بنوه من بعده من عربى وعجمى ، وهذه الأسماء لم تعلمها الملائكة » .

وهذه المحاولة الساذجة تثبت أهمية الشعر عند هذا الراوى الكبير الذى تراد فى كتابه كله بعد ذلك لا يكاد يذكر حادثة الا ويورد على لسانه الشعر . . وانت تحس فى طريقة ايراده لهذا الشعر أنه يكاد يؤمن بصحته وصدقه . . ونحن نضع أيدينا فى كتاب عبيد بن شرية الجرهمى على تفسير لهذه الظاهرة التى نراها متكررة فى كل كتب القدماء التى تعنى بالتاريخ والقصص والأخبار . . نرى هذا التفسير فيما يأتى على لسان معاوية فى حديثه مع عبيد اذ يصر على أن يسمع منه شعرا فى كل ما يقول من أحداث . يقول معاوية لعبيد : « سألتك الا شددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر ولو ثلاثة أبيات » ، ويقول له : « وأبيك لقد أتيت وذكرت عجباً من حديثك عن عاد ، وقد علمت أن الشعر ديوان العرب ، والدليل على أحاديثها وأفعالها ، والحاكم بينهم فى الجاهلية ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ان من الشعر لحكما ) قال عبيد : لقد صدقت يا معاوية ولقد سمعت ابن عمك ( عبد الله بن العباس ) يذكر عن رسول الله ذلك ، وأخبرك يا معاوية أنه لما كان من وفد عاد ما كان وما قد حدثتك عنه ، وصارت عاد ووفدها أمثالا وأحاديث قالت العرب فيها أشعارا . . منها ما حفظناه ومنا ما لم نحفظه ، قال معاوية : فهات اسمعنى ما حفظته من ذلك » .

فنظرة الرواة الى الشعر تحدد ما له من أهمية عندهم وعند الشعب العربى الذى يتلقى ما يروونه من قصص ، فهم لا يتصورون حادثة تقع فى حياة كبير أو صغير دون أن يقال فيها شعر لأن الشعر - كما يقول معاوية - ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها . وليس معنى هذا أن كل العرب شعراء ، ولا أنهم كلهم يقولون الشعر . . وانما معناه أن العرب تعودوا أن يسجلوا أحداثهم شعرا . فالحادثة لا تعد صادقة عندهم الا اذا كانت قد جاءت فى شعر أحد شعرائهم . . ودليل ذلك ما نشهده من عبيد فى رده على معاوية فى ذلك الحديث الذى أوردناه ، اذ يذكر له شعرا قاله أبو سعيد المؤمن عند هلاك عاد ، ثم شعرا للعباس بن مرداس يعظ رجلا من قومه كان ظلما لعشيرته ويزجره عن الظلم ويذكر له عادا وهلاكها ، ثم شعرا للعباس بن مرداس أيضا يذكر الحادثة ويخرج منها بحكمة ، ويذكر بعد هذا شعرا لعبيد بن الأبرص الأسدى يخاطب النعمان ابن المنذر . . وشعرا للأعشى بن نصير أعشى بنى وائل . . ثم شعرا يقوله أسد بن ربيعة الكلابى ، فشعرا على لسان كريم ابن معشر الثعلبى . . وهنا وبعد كل هذا الشعر يقتنع معاوية ويقول « لله درك يا عبيد ، حدثتنا عجبا من أمر عاد فالحمد لله القادر على ما يشاء من أمره » .

فدليل صدق القصة اذن أن يتناولها الشعراء فى شعرهم على مر العصور ، يذكرونها مستخرجين منها العبر والدروس . . ولذا فنحن نرى كل كتب الأخبار تحاول أن تؤكد صحة الخبر بطريقتين : الأول هو رفعه الى قائله عن طريق سلسلة من النسب تحاول أن

تسندده آخر الأمر الى أحد الثقات . . والثانى هو أن نورد ما قيل فى هذا الخبر أو فى هذه الرواية من شعر . . فليس عجيبا أن نرى معاوية يقول لعبيد اثر روايته للشعر : « لقد جئت بالبرهان فى حديثك يا عبيد » .

الا أن أمر الشعر فى هذه الكتب ينقسم الى قسمين : الأول هو ذلك الذى يرد على لسان أبطال الحادثة أنفسهم ، أو على لسان معاصرين لها كالشعر الذى يرد على لسان آدم وهود وطسم وتيع . . وهذا القسم لا شك مؤلف وموضوع . . والثانى شعر ينسب الى شعراء معروفين كالعباس بن مرداس وأعشى بنى وائل فى القصة التى حكيت لك ، وينسب الى حسان بن ثابت وأمرىء القيس وأمّية بن أبى الصلت وعبيد بن الأيرص والنابغة الذبياني وتأبط شراً وغيرهم . . وهذه الأشعار بعضها موجود بالفعل فى دواوين هؤلاء الشعراء . .

والنوع الثانى من هذا الشعر كان يعنى عند المتلقين صدق الخبر وصحة القصة ، ولكنه يعنى عندنا وجود القصة نفسها فى أساطير العرب ، وانتشارها وتداولها بين العرب كجزء من تاريخهم وحكاياتهم ، وكحقيقة إما تاريخية وإما أسطورية تكون جزءا من معتقداتهم وتراثهم الفكرى . .

إما النوع الأول من هذا الشعر وهو الذى يرد على لسان أبطال القصص فلنا عنده وقفه طويلة . . وبسر هذه الوقفة هو أن هذه الظاهرة تستمر فى الرواية العربية بعد هذا استمرارا

يجعلها ظاهرة مكملة لتأليف الرواية العربية . . فهذا النوع من الشعر ، أى الشعر الذى يرد على لسان أبطال الحادثة ، نجده فى القصص التى يحكيها وهب والتى يحكيها عبيد ، ثم فى القصص التى ترد فى كتب الأنساب وكتب السيرة ، ونراها بعد هذا فى كتب التأليف ، وتستمر معنا بعد ذلك فى كل الروايات الشعبية التأليف أو الشعبية تناول ، كتصية عنتر بن شداد ، وقصة سيف بن ذى يزن . وقصة الأميرة ذات الهمة ، وفى ألف ليلة وليلة ، وتغريبة بنى هلال ، والظاهر ببيرس . . وهى فى هذه القصص تبدأ من الشعر الذى يشابه الأشعار انجاهلية التأليف الى أن تصل الى الشعر القريب من العامية ، الى أن نجدها عامية خالصة فى سيرة بنى هلال . . ويتطور الأمر كذلك فى استعمال هذا الشعر حتى نجده فى آخر مراحلها قد غدا هو وسيلة الرواية نفسها ، فالبطل لا يتكلم فى هذه القصص الا شعرا تتخلله بعض الجمل النثرية . . وهذا التدرج اللغوى يمكن اعتباره المؤشر البيانى الذى يدل على درجة الانفصال اللغوى ، ومدى اتساع الهوة التدريجية بين لغة الكتابة ولغة الناس . . ويمكن عن طريق هذا التتبع معرفة أسباب ذلك ودوافعه . . بل ويمكن اقامة دراسة لغوية كاملة تسير تاريخيا ومجتمعيا مع المجتمع العربى فى نموه وتطوره ، وفى ازدهاره وانحطاطه . .

والواقع أن هذا الشعر لم يدخل هذه القصص عبثا ، وانما كان دخوله فيها أساسيا وجوهريا . . فهو أولا يكون عمودا فقريا

في كل قصة ، ترتكز عليه الأحداث وتدور حوله . . والشعر كتعبير  
قولى منغوم أسهل حفظا وأقرب الى اللصوق بالنفس من الحديث  
النثرى المرسل . . ولهذا فالقطع الشعرية تبدو كالتكئة التي يستند  
اليها الرواة في حفظ القصة كلها . . ويؤيد هذا أن معظم ما ورد  
من شعر انما يروى الأحداث مرة أخرى على لسان بطل من أبطال  
هذه الأحداث ، يرويها مرتبة حسب وقوعها ، وهو وان كان يمزج  
في هذه الرواية الشعرية بين الأحداث الخارجية ويبين موقفه  
النفسي منها كمشارك فيها ومتأثر بها ، الا انها في آخر الأمر وثيقة  
منغومة تحفظ الحدث من الزوال بما تتيحه من يسر من الحفظ  
والرواية . . ولعل هذا أيضا هو الذى جعل حجة العرب في حديثهم  
ما يؤكدونه به من شعر ، حتى اصبح بيت الشعر دليلا لا يقبل  
المناقشة على صحة ما فيه من أسماء وأحداث ، وصحة ما روى هذا  
البيت فيه من حدث وناس .

والشعر ثانيا يدخل مكملا للحوار ، بل يدخل في بعض  
الأحيان أساسا في الحوار ، وفي المشاهد التي يقف فيها القاص عند  
حوار يسرده في اطناب فلا بد أن تلمح عادة مساجلة شعرية تدور  
بين أطراف هذا الحوار . ويظهر هذا بوضوح في مواقف الصدام  
والصراع ، يستوى في هذا الصدام الفكرى والصدام الحربى . .  
ففى قصة هلاك عاد التي يرويها عبيد يدعو هود ربه على عاد أن  
يبتليهم بثلاث سنين من القحط فاستجاب له الله . . وهنا تبدأ  
مساجلة شعرية كلما هل عام من هذه الأعوام ، فيروى عبيد شعرا  
على لسان أحد المؤمنين متشفيا بما حل بعباد منذرا الكافرين ،

غيرد عليه أحد المشركين شعرا ويذكر في شعره ان السنين حلوه ومرة ، وان ما حدث ليس نتيجة دعاء هود وانما هو أمر طبيعي لا دخل له لهود فيه . . ثم يمدح عادا ويشيد بذكرها ويعدد مآثرها ومناقبها . . وتستمر هذه المساجلة في كل عام . . وعبيد في كل مساجلة من هذه المساجلات يذكر اسم أحد المؤمنين وما قال من شعر ، ثم اسم المشرك الذي رد عليه وهكذا . .

أما في المعارك الحربية فأنت تجد هذه الظاهرة اوضح ما تكون في سيرة عنتره بن شداد ، فما يكاد عنتره يتعرض لأحد الفرسان حتى يبادره مفاخرا مباحيا ، ويرد عليه غريمه في الحال بمشعر من نفس البحر والقافية معارضا اياه ومفاخرا بنفسه متباها بقوته مدلا بتقبيلته وأهله . . ولا تعنى سيرة عنتره حتى خصومه من الفرس والروم من هذه المساجلة الشعرية التي تسبق كل التحام بالسيف ، حتى لتحسب ان هذه المساجلة تقليد حربي تواضع عليه الناس ، فيقبل العدوان كل على الآخر مشرعا لسانه قبل سيفه . .

والواقع ان هذه المساجلات التي تدخل في الحوار القصصي كثيرا تكاد تكون أقرب الصور التي عرفها العرب الى الأعمال المسرحية . فالمشهد القصصي يقف تماما من ناحية السرد بينما يغلب الشعر الحوارى هنا على كل معالم القصة ، ولعلنا نستطيع أن نقول ان استعمال الشعر في الحوار هنا له دلالة الفنية في تصوير الصراع وتجسيده . وفي ابراز المعالم النفسية التي يقوم عليها هذا الصراع . فالحاجة الى الشعر هنا ليست فضولا وانما هي

حاجة فنية تعين المؤلف في نجسيد المشهد وتجسيه ، وفي ابراز  
الدلالات التى تحيط به من كل نواحيه . وهى تتكامل فى هذه الحالة  
مع السرد بحيث تغدو واياه كلا فنيا متكاملًا . .

والشعر ثالثا يريد على لسان أبطال القصص وشخصها لرسم  
موقفهم من الأحداث ، أعنى أن الشعر فى يد القاص أداة للتعبير  
عن الانفعالات النفسية . وهو أداة لتصوير الجانب الذى  
لا يستطيع السرد النثرى أن يصوره بأمانة ودقة تامتين . . ويبدو  
هذا فى أروع صورته عند وهب بن منبه فى قصة مضاض ومى . .  
قصة الحب الخالدة التى حكيت لك من قبل . . فمى حين تقول :  
مضاض غدرت الحب والحب صادق

والحب سلطان يعز اقتداره

غدرت ولم أغدر وللعهد موثق

وليس فتى من لا يقدر قراره

إذا جاعنى ليل تملمت بالذى

دعا كدى حتى تمكن ضاره

أبيت أقاسى النجم والليل دامس

والنجم قطب لا يدور مداره

إذا غاب لم أشهد وكان محله

محلّى ودارى حيثما كان داره

إذا هاج ما عندى لأول غيرة

علاه اشتعال ما يطاق استعاره

مى هنا تعبر عن لون الحب الذى تعانیه ، ثم عن لون الغيرة  
التي تقاسيها تعبيرا يفوق كل ما يمكن أن يقوله القاص واصفا  
حالتها النفسية ومحددا مقدار هذه الغيرة التي أكلت هذا الحب  
العظيم اكلا . . ولجوء القاص الى الشعر هنا امر لا مفر منه ان  
أراد أن يكون صادقا صدقا فنيا في تصوير أبطال قصته . . وهو  
يرسم موقف مضاض من مى بنفس الطريقة ، ويورد على لسانه  
شعرا عذبا رقيقا معذبا اذ يقول :

سألتك بالرحمن لا تجمعى هوى  
عليه وهجرانا وحبك جاره  
فان لم يكن وصل فلفظ مكانه  
اليه والا موطن المسوت داره

الشعر هنا — كما ترى — ليس فضولا ، وانما هو تغيرة في  
وسيلة التعبير اقتضاه الموقف واضطرت اليه الأمانة . . وليس من  
الأمر في شيء أن يكون هذا الشعر موضوعا أو زائفا ، وانما يكفيننا  
انه عبر حين عجز النثر أن يعبر ، وانه استطاع أن ينقل الينا ما يريد  
القصاص أن يصوره من حال مضاض ومى . .

وهو يبدو أيضا عند عبید بن شریة في أروع صورة فيما  
حكاه على لسان لقمان من شعر عند موت كل نسر من النسور  
السبعة التي وعده الله أن يعيش عمرها جميعا . . فعبيد يقف عند  
كل نسر منها يذكر كيف عثر عليه لقمان ثم كيف عاش مع لقمان ثم  
كيف مات النسر وما قاله فيه لقمان من شعر . . وأنت تحس في

هذه القطع الشعرية تدرجا نحو اليأس والمرارة والخوف يزداد شدة من قطعة الى قطعة حتى اذا ما وصلنا الى القطعة السابعة وجدنا نغمة اليأس والمرارة تصل الى قممتها .. بل تكاد القطعة الأخيرة التى يرثى بها النسر السابع ونفسه معا تكون صرخة عميقة الجذور تحمل كل معانى الأسى واليأس بل والحنق الملىء بالمرارة .

وهذه القطع التى يوردها عبيد على لسان لقمان تحكى احساس رجل يموت سبع مرات ، عند موت كل نسر يحس أنه يقترب من الموت خطوة ، ويوقظه موت النسر لحظات ينزعه فيها من الحياة ليريه النهاية المحتومة المقدرة .

ولست أحسب أن لغة يمكن أن تعبر عن مثل هذا الاحساس قدر لغة الشعر ، ولست أحسب أن القاص حين اختار الشعر كأداة ليعبر بها عن هذه المراحل من قصته الا صادقا صدقا غنيا بها كان رأينا فى صحة نسب الشعر الى لقمان .

فاستعانة القاص بالشعر هنا ليس فضولا ولا حلية ، وانما هو لجوء الى اقرب الأدوات الى التعبير عما فى داخل النفوس ، واستعانة بأدق هذه الأدوات جميعا وأكثرها ابانة .. والقصاص العربى هنا انما يستعين بالشعر ليقدم ما نسميه نحن فى القصص الحديث بالمنولوج الداخلى .. ويتتبع بواسطة الشعر ما نسميه نحن فى النقد الحديث بالحركة الداخلية لنفوس الأبطال .. فالشعر فى هذه الحالة يكمل الصورة ويعطيها عمقا ويرسم ظلالها والوانها، ويخرج القصة من مجرد كونها سردا جامدا تأريخيا لأحداث

أسطورية ذات دلالة معينة لا تتضح إلا في النهاية ، الى قصة حياة تعيش في وجدان الناس بما لشخصياتها من حياة حقيقية فنيا ، مليئة بالانفعالات والانطباعات ، عامرة بالمشاعر المختلفة المتباينة المتضاربة .

والشعر رابعا يأتي في آخر القصة أو بعد نهايتها زمنيا لينقل المضمون الذي أراده النقصان من قصته . . فالقصص يستعين بالشعر يرويهِ على لسان أبطال خياليين أو على لسان شعراء حقيقيين ليعطى المضمون الذي سعى اليه من سر . قصته منذ بدايتها . . وهو في هذا يهرب من إيراد هذا المضمون تقريراً على لسانه هو أو على لسان أبطاله، فيهرب بهذا من الخطابية والوعظية في قصته التي يتركها تنتهي نهاية طبيعية دون أن يتدخل هو بحكمة إلا فيما ندر . . ثم يأتي بهذا الشعر ليعطى كل ما أراد دون ما افتئات على جوهر قصته وفنيتها وأسلوب سردها . . والشعر في هذه الحالة غالباً ما كون جمعا لما قاله الشعراء المعروفون في الحادثة التي يذكرها والقصة التي يعنيها . . كما فعل عبيد في حديث فناء عاد . . وهي في بعض الأحيان تأتي على لسان شخصيات خيالية يخترعها القاص ليخرج بالحكمة التي يريد كما فعل وهب في أكثر من موضع . . ولعل هذا يفسر ظاهرة وجود أبيات الحكمة في آخر القصائد العربية كتقليد من تقاليد الشعر العربي . . لعل هذا التقليد أخذ من هذه الظاهرة التي نلمسها في القصة ، فهو وإن كان غرضاً قائماً بذاته في القصيدة فهو في القصة شيء مكمل .

أو هو اللبسة الأخيرة التي يتكامل بعدها العمل الفنى ويفقدو وافيا بكل ما يراد منه ..

ولجوء القصاص الى الشعر هنا انما يبسر له أمرين : الأول هو التدليل على صدق قصته بما قال فيها الشعراء من شعر ، والثانى أن يحفظ هذا الشعر الذى تركز فيه كل تجربة القصة فيغدو كالأمثال المتداولة على السنة الناس فيذكرهم دائما بقصته .. والمعروف أن معظم الأمثال العربية اما أبيات شعرية ، أو شطر من البيت ، أو كلام مسجوع مومسق يسهل حفظه .. والمعروف أيضا ان كل هذه الأمثال انما ترد الى قصص بعينها .. ولكن لعل أهم ما يستفيد القاص من لجوئه الى الشعر هو هروبه من ورود الأحكام على لسانه هو وتخلصه من الأحكام والمضامين لايرادها على السنة غيره ..

وبعد فلعلنا الآن قد وضعنا أيدينا على سر هذه الظاهرة التى تلفت النظر فى القصص العربى ، أعنى ظاهرة ورود الشعر فيه بكثرة وحثمية .. ولعلنا نفهم الآن سر اصرار معاوية على أن يورد عبيد بن شرية شعرا فى كل ما يقول ، ثم لعلنا ندرك سر اطمئنان معاوية الى كل قصة يعضدها الشعر ويأتى فى ثناياها .. الا أن لهذه الظاهرة جانبا آخر لا يقل عن الظاهرة نفسها خطورة وأهمية .. ففى قصة عاد الأوسط مثلا نرى عبيد بن شرية يذكر على لسانه شعرا يصف فيه حربه مع الفرس يبلغ ٣٣ بيتا .. ثم اذ يتوجه تبع الى الشام يقول فى ذلك شعرا يبلغ ٣٥ بيتا ..

ثم يتف ليذكر قومه وجبروته وسطوته في ٤٣ بيتا . . وحين نزل  
تبع الى غمدان قال يذكر آباءه الذين ملكوا قبله الحصون التي كانوا  
ينزلون فيها باليمن في ٤٤ بيتا . . فلما رجع تبع من غزواته مر  
بالمدينة وترك فيها ابنه خالدًا فقتله أهل المدينة فقال في ذلك شعرا  
يبلغ ٤٧ بيتا . . ثم يعود ليقول في نفس الحادثة ٣٩ بيتا . . ثم  
يقول في نبوءة الحبرين له بخروج النبي محمد صلى الله عليه وسلم  
بدعوة الحق ٢٤ بيتا . . فاذا ما قتل الهذليين اللذين أرادوا له الهلاك  
بغزو الكعبة قال في ذلك ٢٢ بيتا من الشعر . فاذا ما كسى البيت  
العتيق قال في ذلك ٥ بيتا من الشعر . . وقال تبع يمدح قومه  
 ويفخر بقوته ونفسه ٥٤ بيتا . . وكان تبع يعرف النجوم وقال  
فيها من الشعر ٥٦ بيتا . وقال تبع فيما وطئه من البلدان ٦١  
بيتا . . ويستزيد معاوية عبيدا من شعر تبع فيورد له عبيد من  
شعره ٥٢ بيتا . . وقال تبع في حربه للأعاجم الذين اجتمعوا للقضاء  
عليه ١٠٣ بيتا . . ويعود معاوية فيستزيده من شعر تبع فيذكر له  
عبيد ٢٣ بيتا قالها تبع . . ثم يذكر عبيد أن تبع حين وقف أمام  
البيت الحرام قال في الزهد ١٨ بيتا من الشعر . . وهكذا يبلغ  
ما جاء في كتاب عبيد بن شريعة الجرهمي من شعر على لسان تبع  
٦٩٤ بيتا من الشعر ، بينما يروى وهب بن منبه في كتابه التيجان  
كثيرا من الشعر على لسان اناس عاصروا تبعا ، وكان لهم دور  
في قصته ، ويروى ابن اسحق في السيرة أبياتا كثيرة أخرى حول  
تبع لأكثر من قائل . .

وهذا الشعر كله انما يروى فيه تبع سيرة حياته كاملة ،

عزواته وفتوحاته ، معاركه وانتصاراته ، ممزوجة كلها بتأملاته وآرائه . . كما تلمح في هذا الشعر ما يلقي الأضواء حول معارف العرب في عصره بالنجوم والشعوب والصناعات . وتلمح أيضا عاداتهم وتقاليدهم في السلم والحرب . . وتكمل الأشعار الواردة في الكتب الأخرى الصورة بما ترسم حولها من أطر ، وما توضح من مواقف بعض من اشتهروا بفعل في حياة تبع . .

وقد نختلف في قيمة هذا الشعر من ناحيته التاريخية والفنية . فالشعر الوارد على لسان تبع موضوع قطعا ، والشعر الوارد على لسان غيره قد يكون موضوعا وقد يكون صحيحا . . والشعر في حد ذاته قد تكون له قيمة فنية من حيث الدلالة على نفسية تبع ورسم آرائه وأحلامه ، وصدى الأحداث الخطيرة التي عاشها في نفسه ، وقد تكون دلالتها من هذه الزاوية ضعيفة . . بل ان هذا الشعر قد يكون من الناحية الشكلية البحتة موضع نقاش وجدال . ولكن الشيء الوحيد الذي لا جدال فيه هو أن هذا الشعر هو جمع بعضه الى بعض وربط شعريا لملء الثغرات لأكمل عندنا ملحمة طويلة لن تقل بحال عن ٦٩٤ بيتا وهي ما ورد في كتاب عبيد ، وان كان من المرجح أن تزيد بما يمكن اضافته اليها من الكتب الأخرى والروايات التي جاءت عن طريق عبيد . . وهي من حيث قيمتها الملحمية خطيرة القيمة لأنها تسبق في عصر روايتها وتدوينها الكثير من النصوص الجاهلية نفسها ، فهي والحالة هذه من أسبق الأعمال الشعرية . وقد يكون واضعها عبيد وقد يكون عبيد مجرد رواية ، وفي هذه الحالة تصبح عملا شعبيا ملحيميا

مجهول المؤلف الحقيقي ولكنها تسجل تاريخ حياة ملك عربي خطير الشأن فتح كل العالم المعروف في عصره آنذاك ، وضرب بسهم في العلوم المعروفة في عصره ، ولعب دورا خطيرا في حياة الجزيرة العربية والأديان العربية ، اذ المعروف أنه كان يحارب لقتل أهل الشرك وأنه هو الذى حمل دين اليهودية الى اليمن ، وأنه عظم ووقر الكعبة ثم تنبأ بظهور محمد عليه السلام .

وهكذا تأخذ الملحمة كل مقوماتها من وصف للمعارك الحربية، ومن رسم للصراع في الجزيرة العربية حول المعتقدات ، او من تقرير لعظمة العرب وغلبتهم على كل الأمم . . ثم تأخذ دلالة خطيرة يمسها الاسلام كدين ، اذ تقدم الملحمة اعترافا كاملا لهذا المدين وتعلن أن معركة تبع ما هي الامعركة تمهيد للأرض التي يملؤها الاسلام بعد هذا نورا وعدلا .

وهذا الذى نذكره عن هذه الملحمة يحتاج الى دراسة متفرغة كاملة على أحد الدارسين أن يشغل نفسه بها فيقدم لنا صورة للملحمة العربية التى زعم الباحثون أنها لم توجد . . كما أن هذا الذى نذكره عن تبع ليس الا مثلا صغيرا وسط مئات الامثلة التى يمكن بتتبعها العثور على ملاحم اخرى لا تقل روعة في هذه الكتب الأولى . .

وبعد فأحسب أن الذى جرننا الى هذا كله هو ما لا حظناه من كثرة الشعر فى كتاب عبيد ، ولعل هذا يكون قد ساقنا الى شيء له قيمته فى دراسة القصة العربية والشعر العربى جميعا . .